الاختلاف الفكري بين الفقهاء والمتصوفة خلال العهد الزياني.

Intellectual difference between jurists and sufis during the zayani era.

أ.مشراوي ابراهيم[1]، جامعة أبو بكر بلقايد (تلمسان)، brahimmechraoui2@gmail.com
د. (ة) مطهري فطيمة جامعة أبو بكر بلقايد (تلمسان)، bentalhafatima@yahoo.fr
Mechraoui brahim, Abu Bakr Belkaid University, Tlemcen, brahimmechraoui2@gmail.com
Metahri fatima, Abu Bakr Belkaid University, Tlemcen, bentalhafatima@yahoo.fr

تاريخ الاستلام: 2020/10/07	تاريخ القبول: 2021/01/09	تاريخ النشر:2021/01/28

الملخص:

عرف الفقه المالكي خلال العهد الزياني عودة قوية حيث برز في هذه الفترة فقهاء أعلام كانت لهم مكانة علمية تظهر من خلال كثرة تلاميذهم وغزارة تأليفهم في العديد من العلوم المختلفة، كما تظهر أيضا في اعتناء وحفاوة سلاطين بني زيان بهم، حيث كانوا يتميزون بالنزعة العلمية والثقافية والعناية الدائمة بتشجيع الفقهاء، كما ظهر خلال هذا العهد تيار التصوف الذي اعتنقه العديد من الأعلام على اختلاف مستوياتهم الثقافية.

وبسبب اختلاف التكوين العلمي والنفسي لكلا الفريقين فقد وقع بينهما صراع فكري تمظهر بعدة مظاهر، وفي هذا السياق يأتي موضوع هذه المقالة حيث سنحاول من خلالها رسم ملامح لنوع العلاقة التي ربطت الفقهاء بالمتصوفة في تلك الفترة الزمنية الهامة من تاريخ المغرب الأوسط الزياني.

كلمات مفتاحية: الصراع؛ الفكري؛ الفقهاء؛ المتصوفة؛ العهد الزياني.

Abstract:

Maliki jurisprudence has witnessed during the Zayani era a strong comeback. Since, during this period, a lot of scholars with a scientific standing appeared through the large number of their students and their authorship in many different sciences.

Additionally, it through the caring given by the Zayani sultans as they were famous by their scientific and cultural tendency and their permanent encouragement of the jurists. Also, during this era, the the trend of Sofism appeared and was embraced by many scholars of different cultural levels.

Because of the difference in the scientific and psychological background of both groups, an intellectual conflict occurred between them; and which manifested itself in several ways. in this context, the topic of this article, has been put forward in order to try to draw features of the type of relationship between the jurists and the Sufis during that important period in the history of the Middle Zayani Maghreb.

.**Keywords:** Conflict ; Intellectuel ; Jurists ; Sufis; The Zayani era.

[1] المؤلف المرسل: مشراوي ابراهيم، brahimmechraoui2@gmail.com

1.مقدمة:

عرف المغرب الأوسط خلال العهد الزياني تطورا فكريا وحركة علمية نشيطة كان من بين مظاهرها بروز العديد من الأعلام الذين تعدت شهرتهم البلاد بسبب نبوغهم المعرفي وكثرة مؤلفاتهم في مختلف العلوم، خاصة منها ما تعلق بالفقه المالكي، وقد كان الراعي لهذه الحركة العلمية هم سلاطين بني عبد الواد الذين أعادوا للفقه المالكي مكانته متخذين منه مذهب الدولة الرسمي، وأصبح للفقهاء مكانتهم العلمية والاجتماعية.

وإلى جانب الفقه فقد برز تيار التصوف كمنافس له على الساحة الفكرية والاجتماعية، حيث تبناه العديد من الأعلام متخذين من منهجه سلوكا عمليا في حياتهم اليومية، ومع مرور الوقت توسع انتشاره ليصل إلى أوساط العامة وينتقل من النخبة إلى مختلف شرائح المجتمع، حيث سيعرف سلوكيات وعقائد أدت إلى استنكار الفقهاء لها وكان لهم ردود أفعال نحوها برزت في شكل صراع فكري.

- ففيم تمثلت نقاط هذا الصراع؟
- وماهي الأطراف المشاركة فيه؟
- وما أهم ما استخدم فيه؟

2. الفتاوى والردود المعارضة لها :

طفت على الساحة الثقافية في المغرب الأوسط بعض المسائل التي حددت مواقف متباينة لكل من الفقهاء والمتصوفة وأحدثت نوعا من الاستقطاب حولها، حيث حدث تجاذب بين فئة الفقهاء وفئة الصوفية، وأفتى كل طرف بما يمليه عليه تكوينه النفسي وتأهيله العلمي، فقد شهد المغرب الأوسط مع بداية القرن الثامن قضية " فقراء الصوفية" وما كانوا يفعلونه من أمور كان المتصوفة يرون صحتها، وهو الأمر الذي أثار حفيظة بعض الفقهاء وعبروا عن رفضهم لهذه الممارسات من خلال بعض الفتاوى والمؤلفات، منها الرسالة التي ألفها عبد الحق الزرويلي المعروف بـ "أبو الحسن الصغير" (ت719هـ/1319م) وجمع فيها فتاوى بعض علماء المغرب والأندلس، وحتى المشارقة الذين أنكروا فيها ما يصنعه المتصوفة من أفعال، ووجه فيها انتقادا لاذعا لفقراء الصوفية وجمع فيها مثالبهم[1]فقد عرف بمعارضته للصوفية ومهاجمته لهم وأرسلها إلى تلمسان معربا فيها عن اعتراضه على ممارسات فقراء الصوفية.

وقد تصدى للدفاع عن المتصوفة " قاسم بن سعيد العقباني" (ت837هـ/1434م) وصوب صنيعهم،[2] فاستنكر الكثير من الفقهاء ذلك وكان على رأسهم عصريه وبلديه أبو عبد الله محمد بن مرزوق الحفيد - وأيده كثير من علماء الأندلس والقيروان وفاس- حيث انتصر لأبي الحسن الصغير وألف رسالة رد فيها على قاسم بن سعيد العقباني[3] سماها " النصح الخالص في الرد على مدعي رتبة الكامل للناقص" في سبعة كراريس بين فيها مخالفتهم للسنة وإتيانهم بأمور محدثة.

ولم يقتصر الجدال حول هذه المسألة على عصر هؤلاء العلماء، بل تعداه إلى عصر الإمام محمد بن يوسف السنوسي[4] (895هـ/1490م) الذي وضع مؤلفا سماه " نصرة الفقير في الرد على أبي الحسن الصغير" انتصر فيه لقاسم العقباني وشيعته، ومن الذين أيدوا فتوى السنوسي، شيخاه عبد الرحمن الثعالبي[5] دفين الجزائر، والحسن أبركان[6] الراشدي دفين تلمسان[7] ووقفوا موقف المناصر له، ويبدو أن الذي دعا السنوسي إلى هذه الانتفاضة الفكرية إن صح

القول، هو ما جاء من إطلاق للحكم على المتصوفة عامة بأنهم من أهل البدعة والضلالة ولم يقيد أفعالهم بشروط، وهو ما أغضب السنوسي وعبر عنه في رسالته بقوله: « فلما وقعت بيدي هذه الأوراق التي اعترض فيها على أهل الطريقة، وسماهم مبتدعة ولم يقيد قوله بشيء، وأطلق لسانه إطلاقا كليا، نبذت تأليفه والله من وراء ظهري، ونفضت سره بفعله»،[8] بل وصل الأمر بالإمام السنوسي إلى حد الاتفاق مع بعض رجال التصوف على حرق كل النسخ[9] التي بعث بها أبو الحسن الصغير ولم يبقي إلا على نسخة واحدة للرد عليها، ويبدو أن أبا الحسن الصغير لم يكن على شيء من علم التصوف مما جعل الامام السنوسي يسأل العلماء عن حاله ومدى اطلاعه على هذا العلم، فمن بين الذين سألهم عنه الشيخ أحمد زروق البرنسي(ت899هـ/1494م) فكان جوابه: « ليس لأبي الحسن إلا حفظ الظاهر خاصة وليس معه من الباطن شيء، ..... وهو فقيه قح محجوب من الدقائق والرقائق»،[10] وكان السنوسي خلالها يقوي موقفه المعارض لرسالة أبي الحسن الصغير بآراء ومواقف متصوفة تلمسان، فبعد رأي الشيخ أحمد زروق عرض السنوسي الرسالة على الشيخ الحسن الحلوي[11] نزيل تلمسان وأفضلها علما وأدبا ليقرأها، فلما وصلته هاله ما وجده مكتوبا فيها ودعا على كاتبها بقوله: « اللهم ابل ناشرها في البلاد بذل العباد»[12]لأنه أنكر الانتساب إلى التصوف وسمى ذلك بدعة، وقد حاول بعض الباحثين[13]تحليل ما جاء في تلك الرسالة مستعرضا أهم ما تناولته بشيء من التفصيل.

استمر الإختلاف بين أنصار الفريقين إلى أن جاء الإمام أحمد زروق البرنسي– وهو من أعلام التصوف في ذلك العصر - واستطاع التقريب بينهما وتصحيح سلوكيات المتصوفة ووضعها في إطارها الشرعي باعتباره شيخا « من شيوخ التصوف القائم على السنة والشريعة حين يذكر أهل التصوف، وفقيه عالم آراءه فتاوى يرجع إليها حين يذكر العلماء »[14] فكان يحكم بصحة ما هو صحيح من أفعال المتصوفة ويبطل ما كان باطلا منها، وألف في ذلك مؤلفات منها كتاب " عدة المريد الصادق" جرده لبيان عيوب الطرق ومحدثاتها، وتتبع فيه الكثير من عيوب الطرق التي وقف عليها كموضوع السماع الذي عده من الضلال والبطالة، وتفضيلهم الذكر على قراءة القرآن، وتفويت الصلاة وترك قضاء الفوائت، وغيرها من الأمور التي كانت شائعة في عصره منسوبة إلى التصوف ومخالفة للدين، وكانت تؤدي إلى سوء العلاقة بين أهل الفقه ورجال التصوف، فأراد أن يصححها ويبين زيغها.

غير أن الشيخ أحمد زروق لم ينكر كل أحوال متصوفة أهل زمانه، بل بين مذهبه فيهم واستشهد بأقوال نقلها عن كبار المتصوفة كالجنيد وابن عطاء الله مثل قوله "إعتقد ولا تنتقد ولا تطمئن لأحد" أي الرضا عن حالة الشيخ والتسليم وعدم الانتقاد، غير أنه لابد من الإنكار على من بدر منه ما يخالف الدين، ومن ثم يرى صحة إنكار الفقيه على الصوفي ولا يصح إنكار الصوفي على الفقيه[15] لأن دائرة فهم الصوفي أوسع من دائرة فهم الفقيه.

ولما بالغ أحد الفقهاء في ذم مبتدعة المتصوفة، وأفتى بهدم ديارهم وتفريق جموعهم وأن يساموا سوء العذاب حتى يقلعوا عن ذلك [16]لم يوافقه الشيخ أحمد زروق فيما ذهب إليه، وأفتى بأن أمورهم ينظر فيها فيصحح ما يكون صحيحا، ويبطل ما كان مخالفا للشرع، لكنه حذر في رسالة إلى بعض إخوانه بعد أن أمرهم بخمس ونهاهم عن خمس حذرهم من : « مخالطة الفقراء والطلبة ومن الاشتغال بالكنوز والكيمياء وغيرهما فإن ذلك كله مبعد عن الله جالب للفقر بعيد عن

الحق.... وإياكم وخلطة فقراء هذا الزمان فإنهم جذام إلا من قل... وعظموا الفقهاء لأنهم حملة الشريعة، ولا تخالطوهم لأن نفوسهم غالبة عليهم»[17] فكان يضبط الأمور بميزان الشريعة ولا يلتفت إلى كون المخالف لها صوفيا أو فقيها.

ومن بين القضايا التي ألقت بظلالها على المنطقة وشغلت كلا من الفقهاء والمتصوفة وكان لكل منهما رأي فيها هي قضية النسب الشريف، ونظرا لأهمية هذه الفئة داخل المجتمع فقد انتحل الكثير من الناس هذا النسب الشريف للحصول على مزاياهم، وبالمقابل ضاعت حقوق بعض الأشراف الذين اتهموا بانتحاله، فظهرت مسألة إدعاء الشرف من جهة الأم وأصبح الكثير من الناس ينتسب للأشراف من قبل أمه وليس من قبل أبيه.

نقلت إلينا كتب النوازل العديد من القضايا التي تعرضت لمسألة الشرف من جهة الأم، منها ما نقله الونشريسي في فتوى علماء تلمسان فيمن كانت أمه شريفة هل يثبت له بذلك الشرف عن طريقها أم لا؟ وإذا ثبت هل يُدعى به ويستجيب هو إذا دعي أم لا؟ فممن أفتى بثبوته وصحته من أهل القرن الثامن الهجري أبو عبد الله الشريف التلمساني[18](ت771هـ/1370م) وسعيد العقباني(ت811هـ/1409م) ومعه جماعة من فقهاء تلمسان، ومن علماء بجاية منهم أبو علي حسن بن عبد الرحمن البجائي(ت754هـ/1353م) إمام المعقولات والمنقولات ومن كبار فقهاء المالكية ألف في ذلك رسالة[19]أبطل فيها القول بادعاء الشرف من قبل الأم، وصوب رأيه شيخه ناصر الدين المشدالي (ت731هـ/1331م) [20] ومن أهل القرن التاسع الفقيه أبو يحي بن السيد أبي عبد الله الشريف ومحمد بن مرزوق الحفيد(ت842هـ/1439م) وقاسم بن سعيد العقباني (ت854هـ/1450م) وأحمد بن زاغو (845هـ/1442م) كلهم قالوا بأن الشرفاء من قبل الأب لا بد أن ينتهي شرفهم إلى الشرف من قبل الأم[21] وأُلفت في هذا الموضوع مؤلفات.

من الذين ألفوا في ذلك ابن مرزوق الحفيد كتابا سماه" إسماع الصم في إثبات الشرف من قبل الأم" معتمدا على النصوص القرآنية والأحاديث النبوية، كما وجد مؤلف آخر بنفس الاسم" إسماع الصم في إثبات الشرف من قبل الأم" لمحمد المراكشي أصلا القسنطيني دارا المعروف بالأكمه (ت807هـ/1405م)[22] وهو في نفس الموضوع دعا فيه الناس إلى عدم الإساءة إلى الشرفاء والانتقاص من حقهم، لكن هناك من فقهاء المغرب الأوسط من أنكر هذا الادعاء وعارضه ليقطع الطريق على منتحلي النسب الشريف، كابن قنفذ القسنطيني (ت810هـ/1407م) الذي ألف كتابا سماه[23] " تحفة الوارد في اختصاص الشرف من الوالد" وهو كما يفهم من عنوانه أن الشرف يثبت من طرف الأب وليس من طرف الأم.

وقد كان لبعض رجال التصوف رأيهم هم أيضا في مسألة الشرف، فقد كانت مكانة الشرفاء عندهم في منزلة عالية، فهذا ابراهيم التازي لما بنا زاويته جعل في مدرستها المعدة لطلب العلم غرفة مرتفعة وعينها لولدين من أبناء الشرفاء وزودها بما يلزم لأمور الضيافة، و توارثها الطلبة من الشرفاء من بعدهم حتى صارت تعرف ببيت الشرفاء، وقد «كان سيدي ابراهيم التازي على حالة عظيمة ورتبة كريمة من إجلال الشرفاء المنتسبين إلى البيت والتنويه بقدرهم، والتنبيه على رفعة مكانهم، ويقول لأصحابه: تعظيم أهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم من تعظيمه لأن حرمته ميتا كحرمته حيا»[24] لكن يبدو أن أبناء الشرفاء لم يكونوا كلهم يحترمون تلك المكانة التي كان يخصهم الناس بها، فقد نقل إلينا ابن صعد التلمساني حكاية عن أحد الأشراف الذي قدم إلى وهران بغرض التجارة، فأراد القائم على زاوية الشيخ ابراهيم التازي إنزاله بإحدى الغرف التي خصصت للشرفاء، فاستنكف هذا الشريف عن النزول بها وقال: « أومثلي ينزل

في المدرسة مختلطا مع الناس؟ فرد عليه الشيخ: هذا المنزل هو أفضل منزل في الزاوية، وفيه كان ينزل سيدي ابراهيم»[25] لكن الشريف رد على القائم بالزاوية بكلام فاحش وأغلظ له في القول وسب الزاوية، ورغم ذلك لم يبدر من الشيخ فعل أو قول ينم عن غضبه بل قال له قولا لينا وذهب وتركه.

ومما ينبغي الإشارة إليه أن العديد من رجال التصوف في المغرب الأوسط ينتسبون لفئة الشرفاء، ولأجل ذلك كانوا يحضون بمكانة رفيعة في المجتمع ورغم ذلك فقد كان « الاعتقاد السائد عند الصوفية أن لا قيمة للنسب الشريف ما لم يكن صاحبه قد زهد في الدنيا وابتعد عن مخالطة أهلها وبالتالي الإحالة إلى نسب ديني يكتب بأنواع المجاهدات والتدرج في المراتب الصوفية نحو القطبانية، وهي الدرجة التي يكون فيها الولي قد ورث عن النبي صلى الله عليه وسلم أقواله وأحواله الظاهرة والباطنة»[27] فمن الذين نسبوا إلى الشرف من جهة أمهاتهم الشيخ أبو العباس أحمد البجائي الذي ذكره ابن مريم عند ترجمته للشيخ أحمد المعروف بابن الحاج الورنيدي بقوله: « وكتب له الفقيه الزاهد العابد الناسك أبو العباس أحمد البجائي الشريف لأمه سؤالا..... »[28] وفيه دلالة واضحة أنهم كانوا يدعون بالشرفاء وأنهم كانوا يقبلون بهذا النعت، ومنهم أيضا محمد بن يوسف السنوسي ومحمد بن عمر الهواري، الذين لم يكن من الممكن ـ حسب رأي أحد الباحثين[29] ـ جعلهما ينحدران من نسل النبي صلى الله عليه وسلم لأنهما بربريان ولهذا جعل نسبهما حسنيا من جهة أمهاتهما..

3. إنكار الفقهاء لبعض الممارسات الصوفية:

ومن الأمور التي كان بعض الفقهاء ينكرونها على رجال التصوف لبسهم للثياب المتسخة وعدم اهتمامهم بنظافة أجسامهم، فقد وصفهم الورتيلاني بأنهم أنتن من الجيفة وطبائعهم طبائع بهائم في المزابل والأسواق والأزقة، لأنهم يعتقدون أن الصبر على وسخ الثياب يؤدي إلى إزالة وسخ الباطن، وانتقدوا مظاهر التقشف والزهد التي كانت بادية عليهم، إلا أن هذه النظرة لا يمكن تعميمها على جميع المتصوفة، حيث نجد بعض المتصوفة المشهورين قد عرف عنهم لبسهم لفاخر الثياب وأكلهم لذيذ الطعام، فنرى الشيخ ابراهيم التازي لم يعرف عنه زهده في لباسه ومطعمه، لأنه كان يرى « أن الزهد في الدنيا هو اعتقاد حقارتها، وملازمة هوانها وعدم ركون النفس إلى لذتها، أما فراغ اليد منها وتركها في الظاهر مع تعلق القلب بها في الباطن، فليس ذلك من الزهد في شيء»[30]وذلك بعد أن انتقده جماعة بمدينة وهران ــ نعتهم ابن صعد بالجهلة الطغام ـ وعابوا عليه أحواله في اللباس ومخالفته لصفات شيخه[31] محمد بن عمر الهواري الذي عرف عنه الزهد والتقشف في الملبس والمطعم، فإنه لم يكن يلبس أثناء تجوله سوى سترة وكساء بال من صوف، ومن قوله في ذلك:

كنت بالحفى نمشي ولباسي أيضا سترا وخير الرزق ما يلفي أن الصبر للفقرا[32]

ومن المسائل التي استنكرها بعض الفقهاء مسألة التبرك بالأضرحة والدعاء عندها، فقد كان الكثير من المتصوفة يفعلون ذلك ويحفزون الناس عليه، وقد نقلت إلينا كتب المناقب العديد من الإشارات التي تدل على ذلك منها ما نقله صاحب البستان عن الشيخ الشوذي المعروف بالحلوي المدفون بتلمسان فقال: «وقبره هناك مزار مجاب الدعوة» [33] وكذلك عند ترجمته للشيخ أبي العلا المديوني(ت735هـ/1335م) ذكر بأنه معروف بإجابة الدعوة عند ضريحه. وهناك

من الأضرحة من كان يقصده المرضى وذوو العاهات للاستشفاء عنده، مثلما هو الحال عند ضريح سيدي بوسعيد الشريف الملقب بأبي زيتونة[34] نسبة لزيتونة نبتت فوق قبره.

وقد صارت العديد من أضرحة الصالحين ملجأ للمجرمين يأوون إليها عند ارتكابهم للجريمة، فكان القائمون على تلك الأضرحة يوفرون لهم الحماية من العقاب ويرون ذلك من الإجارة، ويحذرون الناس من التهاون بها، وهو ما أشار إليه ابن صعد في كتابه " **النجم الثاقب**" عند حديثه عن ضريح وزاوية الشيخ الصالح محمد بن عمر الهواري « أنه جرت عادت الله فيمن يتعرض لهم بزاويته، وإضافة الجناة اللائذين بحرمه.....وإخراج من استجار بحرمها فينتقم الله من فاعل ذلك في الوقت، ويأخذه من الجانب الذي يطمئن إليه، ويظهر عليه أثر غضب الله في نفسه وماله وولده»[34] ومثله ما ذكره المازوني في "**ديباجة الافتخار**" عند ترجمته للولي سيدي واضح بقوله: « وظهرت بركته في كشف الملمات لمن استجار به وتعلق بزاويته، ودخل في حرمه»[35] وقد كان رأي الفقهاء أن طردهم من الزاوية أولى ليحاسبوا على جناياتهم، لأن حمايتهم من العقوبة والذود عنهم يجرأ غيرهم على ارتكاب الجنايات والهروب من العقاب.

ومنها مسألة السماع والاجتماع له وهو ما يعرف عند أهل التصوف "بالحضرة"، وما يصاحب ذلك من رقص وطبول وشطح وتمايل ولبس المرقعات، حيث يزعم المتصوفة أن ذلك يؤدي إلى حالة الجذب التي تعتري المريد، وقد أنكر عليهم بعض الفقهاء ذلك، منهم فقيه بجاية عبد الرحمن الوغليسي(786هـ/1384م) الذي سئل عن اجتماع الفقراء للرقص والسماع فأجاب منكرا لذلك « ما سمعنا أحدا من أهل الإسلام يفعل ذلك»[36]، بل إن الشيخ أحمد زروق وهو من أعلام المتصوفة أفتى بفساده خاصة « إذا اقترنت به أمور فاسدة بحضور النساء وسماعهن أصوات الرجال وحضور الآلات.....لأنه يحرك ما في القلوب، والغالب على النفوس الشر»[37] وممن أنكر ذلك أيضا الشيخ عبد الرحمن الأخضري في قصيدته المسماة " القدسية" بقوله :

والرقص والصراخ والتصفيـــق عمدا بذكر الله لا يليـــق

و إنمـا المطلوب في الأذكـــار الذكـر بالخشوع والوقـــار

فقـد رأينـا فرقـة إن ذكـــروا تبدعـــوا وربمـا قد كفـروا

وقد أفتى الكثير من الفقهاء ببدعية ذلك وضلالته، ووصفوا فاعليه بأنهم أشد ضررا على المسلمين من مردة الشياطين [38] وظل الفقهاء يعتبرون أحوال الصوفية لا سيما ما تعلق منها بأعمال الحضرة انحرافا عن الدين وشكلت أهم مواطن انتقادهم[39]، فكانوا يرون أن من اعتقد ذلك بأنه قربة لله تعالى فهو ضال مضل.

ومن القضايا التي أثارت استنكارا لدى العديد من الفقهاء، قضية المبالغة في الإيمان بالكرامات واغترار فقراء المتصوفة بكل من ظهرت عليه خارقة[40]، والكرامة هي شيء معجز يصعب على البشر الإتيان بمثله لأنه من خوارق العادات، ورغم أن بعض الفقهاء كأحمد القباب وابن عبد السلام، ومحمد بن قاسم العقباني لم ينكروا ثبوتها جملة وهو المقرر عند المالكية[41]، إلا أنهم رأوا ضرورة إخضاعها لضوابط الشرع لأن هناك بعضا من دعاوى الكرامة ماهو باطل،

كتلك التي أوردها الونشريسي في المعيار بأن رجلا ادعى رؤية الملائكة والتكلم معهم، ومعرفة جنس الجنين في بطن الحوامل[42] ومثل ذلك ما روي أن سيدي واضح (ت856هـ/1452م)[43] جاءه بعض البدلاء من أصحابه وطلب منه مرافقته لبعض إخوانهم في جبل لبنان، فذهب معه من مازونة إلى لبنان وعاد من ليلته تلك !!!؟ [44] وهناك من المنكرين للكرامة من قالوا بأنه «إذا جاز ظهور الكرامة على بعض الأولياء، جاز ظهورها على الباقين، فإذا كثرت الكرامة حتى خرقت العادة جرت وفقا للعادة، وذلك يقدح في المعجزة والكرامة»[45]، وحصر الأستاذ أبو إسحاق الاسفرائيني[46] الكرامة في «مثل إجابة الدعوة وموافاة ماء في بادية في غير موضع توقع المياه ومظانها ونحو هذا، وأما جنس ما هو من معجزات الأنبياء فلا. »[47] فالكرامة عنده لا تتعدى حدود المقبول والمعقول، لذلك كان أغلب الفقهاء ينكرون على المتصوفة ادعاؤهم لأمور تخرج عن دائرة ما تفهمه العقول، وهو ما دفع بالمتصوفة تحاشي ذكرها حتى إنهم قالوا: «إن لله عبادا لو تكلموا بما استفادوه من مواهب الله لأفتى هؤلاء الفقهاء برجمهم»[48] وذلك خشية أن يكذبوا فيما ادعوه من مواهب وأحوال.

بينما يرى الصوفية أن الكرامات هي من اختصاص أهل الصلاح واحتجوا على ذلك بقولهم أن « الذي يدل على جواز كرامات الأولياء: القرآن، والأخبار، والآثار، والمعقول»[49] وساقوا أدلة وشواهد لكل منها، وقد أطنبت كتب المناقب والكرامات في ذكر هذه الخوارق عند تعرضها لكل ترجمة تقريبا حتى صارت كأنها ملازمة للفظة ولي، نذكر منها على سبيل المثال قول ابن مريم في البستان عند ترجمته لأبي عبد الله الشامي أصلا التلمساني دارا ومسكنا: « الولي الصالح ذو الكرامات الباهرة والأحوال المرضية»[50]، ومثلها ما نقله التنبكتي في ترجمته للشيخ الحسن أبركان فقال: « وله مكاشفات كثيرة وكرامات »[51]، والمتتبع لكتب المناقب والكرامات يصادف الكثير من العبارات والقصص المثبتة للكرامات.

ومن المظاهر التي ثار عليها بعض الفقهاء ضد المتصوفة وأثارت جدلا بينهما بين منكر لها وبين من اعتبرها من البدع المستحسنة، مسألة الاحتفال بمولد النبي صلى الله عليه وسلم، فقد شاع في العهد الزياني الاحتفال بهذه المناسبة على المستوى الرسمي[52] خاصة في عهد السلطان الزياني أبي حمو موسى الثاني الذي كان يولي أهمية كبيرة لهذه المناسبة الشريفة[53] التي جعلها عيدا رسميا من أعياد الدولة، وكان كما ذكر التنسي يدعو لها الأشراف والسوقة[54] ويغلب عليها طابع الالتزام الديني من قراءة للقرآن وتلاوة قصائد في مدح النبي [55] صلى الله عليه وسلم وتفريق الصدقات على الفقراء وغير ذلك من أعمال البر، لكن هذه الاحتفالات عند أتباع الطرق الصوفية اتخذت بعدا آخر امتزج فيها المقدس بالمدنس، وغلب عليها طابع الشعوذة والخروج عن المألوف والمعروف من ضوابط الدين، وتمظهرت في تلك الممارسات الاحتفالية التي كانت غالبا ما تقام في الزوايا أو عند أضرحة الصالحين، وهنا نشب الاختلاف بين الفقهاء والمتصوفة حول جواز الاحتفال بهذه المناسبة هل هو مستحسن أم بدعة محدثة في الدين، وحيث أن جل فقهاء المغرب الأوسط كانوا على مذهب الإمام مالك رحمه الله فقد أفتوا بأن الاحتفال بالمولد بدعة وقالوا بمنعه لأنه لم يستحسنه السلف ولم يفعلوه [56] واعتبروه شيئا خارجا عن نطاق الدين وكانوا يرون فيه مضاهاة للنصارى في عيد ميلاد المسيح عليه السلام، ناهيك عما يصحب ذلك - وبخاصة في مجالس الصوفية – من محرمات كالمعازف واختلاط الرجال بالنساء، وظهر علماء أجلاء تصدوا لهم وحاربوهم بالحجة والبرهان والكتاب والسنة أمثال الفكون صاحب منشور الهداية[57] وقد كان الغرض من معارضة الفقهاء لمثل هذه الاحتفالات هو رد الناس إلى قواعد وأسس الدين الاسلامي وضبط أخلاق وسلوكيات المجتمع.

وفي مقابل هذا الإنكار من طرف غالبية الفقهاء، نجد من رجال التصوف من أجاز الاحتفال بمولد النبي صلى الله عليه وسلم مثل الخطيب ابن مرزوق الذي ألف في فضل ليلة المولد وليلة القدر كتابا سماه "**جنا الجنتين في فضل الليلتين**" مؤثرا فيه ليلة مولده صلى الله عليه وسلم على ليلة القدر[58]، لكن رأيه في هذا الاحتفال أن يكون مقيدا بما لا يخرج عن حدود الشرع، فقد نقل التنبكتي عنه أنه قال:« والأظهر عندي ما قاله بعض المغاربة استعمال الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم في هذه الليلة؛ وإحياء سنته ومعونة آله وتعظيم حرمهم وفعل أنواع البر مما سواها مما أحدث، إذ لا يخلو من مزاحم في النية أو مفسد للعمل أو دخول شهرة، وطريق الحق والسلامة معروف فالأفضل تكثير الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم »[59] ولايرى المتصوفة الحكم بعدم جواز الاحتفال بالمولد بدعوى أنه تشبه بأهل الكفر ومقارن ذلك بالنيروز والمهرجان [60]بل يعدونه من البدع المستحسنة المشروعة في الدين.

4.خاتمة:

نجم عن الاختلاف في المواقف من بعض القضايا الفكرية والممارسات الدينية علاقة اختلاف ونفور بين الفقهاء والمتصوفة ونتج عن ذلك صراع فكري تمثل في الفتاوى والردود المعارضة لها، حيث تصدي زعماء كل فريق للدفاع عن آرائهم من خلال بعض المؤلفات كالكتب والرسائل التي عُرفت خلال ذلك العهد، ومن مظاهر الاختلاف التي قام حولها هذا الصراع أيضا في تلك الفترة إنكار غالب الفقهاء لبعض الممارسات الصوفية كلبس المتسخ من الثياب اعتقادا منهم أنه من مظاهر الزهد في الدنيا، ومنها قضية التبرك بأضرحة الصالحين والدعاء عندها معتقدين أنها من أماكن إجابة الدعاء، كما أنها جُعلت مأوى للمجرمين للنجاة من العقوبة.

ومنها المسائل التي شكلت محورا في هذا الصراع هي إقامة بعض الطقوس المعروفة لدى المتصوفة كالحضرة التي يصاحبها الرقص والتصفيق، إضافة إلى المبالغة في الاعتقاد في كل من ظهرت عليه أمور خارقة واتخاذه وليا وتصديقه فيما يقوله، وتجدر الإشارة في الأخير إلى أن هذا الاختلاف بين الفريقين لم يصل إلى حد الصدام العنيف، بل بقي محصورا في حدود الصراع الفكري الذي عرفه المغرب الأوسط خلال العهد الزياني.

5.الهوامش (الإحالات) :

[1] المهدي البوعبدلي: **ظهور السلفية في الجزائر**، مجلة الدراسات المغاربية،ع 1، ديوان المطبوعات الجامعية، وهران أكتوبر 1988 ، ص: 103.

[2] أحمد بابا التنبكتي: **نيل الابتهاج بتطريز الديباج**، تق: عبد الحميد عبد الله الهرامة، طرابلس: دار الكتاب2000م، ط:2، ص:507.

[3] محمد إدريس طيب: **الشيخ أحمد زروق محتسب العلماء والأولياء الجامع بين الشريعة والحقيقة**، بيروت: كتاب ناشرون، ط:2، 2008، ص:421.

[4] **السنوسي:** محمد بن يوسف بن عمر بن شعيب السنوسي الحسني من جهة الأم، كبير علماء تلمسان وزهادها في عصره، نشأ بتلمسان وبها توفي سنة 895هـ، صاحب العقائد المشهورة في التوحيد. ينظر: عادل نويهض، **معجم أعلام الجزائر**، مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف والترجمة والنشر، بيروت، ط:2، 1980م، ص: 180.

[5] **الثعالبي:** عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي صوفي من كبار المفسرين وعلماء الجزائر وأعيانها، ولد ونشأ بناحية واد يسر بالجنوب الشرقي من مدينة الجزائر، تعلم ببجاية وتونس ومصر ودخل تركيا، له أكثر من تسعين مؤلفا، توفي سنة875هـ. ينظر: نويهض، المرجع السابق، ص: 90.

[6] **الحسن أبركان:** محمد بن الحسن بن مخلوف المزيلي الراشدي، متصوف وفقيه مالكي ومحدث من أهل تلمسان وبها نشأ وتعلم. ينظر: عادل نويهض، المرجع السابق، ص: 14.

[7] المهدي البوعبدلي: **أهم الأحداث الفكرية بتلمسان**، مجلة الأصالة، ع: 26جويلية، أوت 1975م. ص- ص: 128،126.

[8] جمال الدين بوقلي: **الامام بن يوسف السنوسي وعلم التوحيد**، كنوز للنشر والتوزيع، تلمسان، ط:1، 2011م، ص: 405.

[9] عبد الحميد حاجيات: **أبو حمو موسى الزياني، حياته و آثاره**. الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر، ط:2، 1982م، ص: 87.

[10] جمال الدين بوقلي، المرجع السابق، ص: 406.

[11] **الشيخ الحلوي:** أبو عبد الله الشوذي الاشبيلي إمام العارفين وتاج الأولياء المحققين وسيد الصالحين، نزيل تلمسان وهو من أكابر العلماء العباد العارفين بالله، كان قاضيا بأشبيلية آخر دولة بني عبد المومن ثم فر بنفسه إلى تلمسان في زي المجانين وتوفي بها. ينظر: ابن مريم التلمساني: **البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان**، مر: محمد بن أبي شنب، المطبعة الثعالبية، الجزائر 1908م ، ص:70.

[12] جمال الدين بوقلي، المرجع السابق، ص: 404.

[13] مصطفى باحو: **علماء المغرب ومقاومتهم للبدع والتصوف والقبورية والمواسم**، المغرب: منشورات السبيل، ط:2، 2007م، ص:91.

[14] أحمد زروق الفاسي البرنسي: **عدة المريد**، تح: الصادق بن عبد الرحمن الغرياني، بيروت: دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، ط: 1، 2006م. ص:5.

[15] أحمد زروق، عدة المريد، المصدر السابق، ص:166.

[16] عبد الكريم الفكون: **منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية**. تح: أبو القاسم سعد الله، بيروت: دار الغرب الاسلامي، ط:1، 1987م. ص:144.

[17] عبد الكريم الفكون المصدر نفسه، ص: 196.

[18] **أبو عبد الله الشريف التلمساني:** ينتهي نسبه إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ولد سنة710هـ، وتوفي 771هـ، من أشهر علماء تلمسان في وقته. ينظر ترجمته في: نيل الابتهاج، ص: 430، والبستان، ص:164، وتعريف الخلف، ص: 106.

[19] نويهض، المرجع السابق، ص: 34.

[20] الونشريسي أبو العباس أحمد بن يحي: **المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى إفريقية والأندلس والمغرب**. ج:12، بإشراف: محمد حجي، الرباط: وزارة الأوقاف والشؤون الاسلامية1981م. ص: 207.

[21] الونشريسي، المصدر نفسه، ج:2، ص: 546.

[22] نصر الدين بن داود: **بيوتات العلم بتلمسان من القرن 7هـ/13م إلى القرن 10هـ/16م**، أطروحة دكتوراه في التاريخ الوسيط، إشراف محمد بن معمر، قسم التاريخ وعلم الآثار، جامعة أبو بكر بلقايد تلمسان، 2010/2009م. ص: 236.

[23] بونابي الطاهر: **حركة التصوف في الجزائر خلال القرن العاشر الهجري، السادس عشر الميلادي**. رسالة ماجستير، إشراف: عمار بن خروف، قسم التاريخ، جامعة الجزائر 2006/2005م،، المرجع السابق، ص: 378.

[24] ابن صعد التلمساني: **النجم الثاقب فيما لأولياء الله من مفاخر المناقب " الجزء الأول"**، دراسة وتحقيق، بلحاج محمد، رسالة ماجستير، إشراف: بن معمر محمد، قسم الحضارة الإسلامية، جامعة وهران، 2008/2007م، ص: 95.

[25] ابن صعد، النجم الثاقب، المصدر السابق، ص:118

[26] بونابي، الحركة الصوفية، المرجع السابق، ص: 380.

[27] ابن مريم، المصدر السابق، ص: 14.

[28] ألفريد بل: **الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي**، تر: عبد الرحمن بدوي، دار الغرب الاسلامي، بيروت، ط:3، 1987م، ص: 423.

[29] ابن صعد، النجم الثاقب، المصدر السابق، ص:147.

[30] محمد بن صعد الأنصاري، **روضة النسرين في التعريف بالأشياخ الأربعة المتأخرين**. تح: يحي بوعزيز، عالم المعرفة، الجزائر 2009م.، ص:180.

[31] ابن صعد، روضة النسرين، المصدر نفسه، ص:46.

[32] ابن مريم، المصدر السابق، ص: 70.

[33] ابن مريم، المصدر السابق، ص: 72.

[34] ابن صعد، روضة النسرين، المصدر السابق، ص: 113.

[35] موسى بن عيسى المازوني، **مختصر ديباجة الافتخار في مناقب أولياء الله الأخيار**، تح: عبيد بوداود، مكتبة الرشاد للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، ط:1، 2015م، ص: 633.

[36] الونشريسي، المصدر السابق، ج:11، ص: 34.

[37] أحمد زروق، عدة المريد، المصدر السابق، ص: 264 .

[38] الونشريسي، المصدر السابق، ج11،ص: 30.

[39] بوداود عبيد، **قراءة في العلاقة بين صوفية وفقهاء المغرب الأوسط ما بين القرنين7و8 الهجريين/13-15م**، مجلة عصور الجديدة، عدد:1، 2011م. ص: 61.

[40] أحمد زروق، عدة المريد، المصدر السابق، ص: 223.

[41] محمد فتحة: **النوازل الفقهية والمجتمع**، أبحاث في تاريخ الغرب الاسلامي من ق 6- 9هـ/12-15م، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الدار البيضاء،1999م، ص: 198.

[42] الونشريسي، المصدر السابق، ج: 2، ص: 388.

[43] **أبو البيان واضح:** واضح بن عثمان بن محمد بن عيسى بن فركون المغراوي، الفقيه القاضي الأعدل، ترجم له الونشريسي في وفياته وقال : بلدينا وقريبنا توفي سنة 856هـ . **ينظر:** التمبكتي، نيل الابتهاج، المصدر السابق، ص: 619.

[44] المازوني، المصدر السابق، ص: 611.

[45] يوسف بن إسماعيل النبهاني: **جامع كرامات الأولياء**، ج:1، تح: ابراهيم عطوة عوض، الهند: مركز أهلسنة بركات رضا فور بندر، ط:2، 2001م. ص:22.

[46] **الاسفرائيني:** أبو إسحاق ابراهيم بن محمد بن ابراهيم الاسفراييني، الواعظ من حفاظ الحديث والجوالين في طلبه، المعروف بصحبة الصالحين من أئمة الصوفية في أقطار الأرض، توفي سنة 372هـ. ينظر: ياقوت الحموي: **معجم البلدان**، ج:1، بيروت: دار صادر1977م. ص: 178.

[47] الونشريسي، المصدر السابق، ج: 2، ص: 388.

[48] المازوني، المصدر السابق، ص: 826.

[49] النبهاني، نفسه،ج1، ص: 15.

[50] ابن مريم، المصدر السابق، ص: 70.

[51] التنبكتي، المصدر السابق، ص: 161.

[52] ***Tlemcenvielle et Dhistoir,*** *Paris: edition laurens collection1950, P83-,Marcais Georges*

[53] عبد العزيز فيلالي: **تلمسان في العهد الزياني.** ج:1، الجزائر: موفم للنشر والتوزيع،2002م. ص: 278.

[54] التنسي محمد بن عبد الله: **نظم الدروالعقيان في بيان شرف بني زيان**. تح: محمود آغا بوعياد، تلمسان: موفم للنشر2011م. ص: 162.

[55] التنسي، المصدر نفسه، ص: 163.

[56] علي محفوظ: **الإبداع في مضارالابتداع**، الرياض: مكتبة الرشد للنشر والتوزيع، ط:1، 2001م. ص: 231.

[57] هوارية بكاي، **العلاقة بين الفقهاء والمتصوفة في المغرب الأوسط الزياني بين التعايش والتصادم**، مجلة قرطاس الدراسات الحضارية والفكرية، عدد: 3 جانفي 2017. ص: 90.

[58] الونشريسي، المصدر السابق،ج11، ص: 280.

[95] التنبكتي، المصدر السابق، ص: 296.

[96] أحمد بن عمار: **نحلة اللبيب، بأخبارالرحلة إلى الحبيب.** الجزائر: مطبعة فونتانا1903م. ص: 99.